كذبة الحوار وحقيقة التحالف الامريكي ـ الايراني ـ الصهيوني

عوني قلمجي *

■ من المضحك ان تنسب فكرة اجراء حوار بين امريكا وايران الى عبد العزيز الحكيم رئيس ما يسمى بالمجلس الاعلى للثورة الاسلامية. والمضحك اكثر هو تظاهر الطرفين بقبول دعوة الحكيم وكأن مثل هذا الحوار لم يكن له وجود من قبل، في حين ان امريكا وايران ارتبطتا بتحالف وثيق فيما يخص احتلال العراق مثلما تحالفتا عند احتلال افغانستان، واذا كان هناك من يشكك بهذه الحقيقة ويعتقد بوجود عداء بين امريكا وايران فعليه ان يعود الى جملة من الحقائق العنيدة. فعلى سبيل المثال لا الحصر، فان عددا من الكتاب الامريكيين اعتبروا انه لولا المساعدة الايرانية اللوجستية والتكتيكية للامريكيين لفشل غزوهم لافغانستان. وفي هذا الصدد قال علي اكبر هاشمي رفسنجاني يوم 8 شباط (فبراير) عام 2002 والذى نقلته جريدة «الشرق الاوسط» في اليوم التالي في جامعة طهران: «القوات الايرانية قاتلت طالبان وساهمت في دحرها ولو لم نساعد قواتهم في قتال طالبان لغرق الامريكيون في المستنقع الافغاني ويجب على امريكا ان تعلم انه لولا الجيش الايراني الشعبي ما استطاعت ان تسقط طالبان». وكما هو الحال في افغانستان فقد اعلن العديد من القادة الايرانيين بانه لولا ايران لما تمكنت امريكا ايضا من احتلال بغداد، والمقصود طبعا الاشارة الى تعاون احزابها مثل المجلس الاعلى وحزب الدعوة مع امريكا قبل الاحتلال، وتقديم ايران لاحقا الدعم اللوجستي والتكتيكي للقوات الامريكية خلال غزو العراق، واخيرا وليس اخرا الدور الذي لعبه السيستاني رجل ايران في دعم وتكريس الاحتلال. وجراء ذلك نالت ايران حصتها من الاحتلال في كلا البلدين، ففي افغانستان تخلصت من حركة طالبان التي تعتبرها ايران عدوة لكونها تنتمي الى المذهب السني وحصول شيعتها العالية وعاصمتها النجف الاشرف، ثم حصول شيعتها على حصة الاسد في السلطة العراقية، والسماح لايران بمد نفوذها في جنوب العراق، وعلى هذا الاساس ظل التعاون والتنسيق قائما بين الطرفين وبكل الاشكال سواء في السر او العلن. ولم يكن الكيان الصهيوني بعيدا عن هذا التحالف غير المقدس ولكن دون ان يظهر في الصورة لان للضرورة احكامها. اذ كانت ايران تنكر على الدوام علاقتها بهذا الكيان بل وطالب نجادي الرئيس الجديد بالقضاء عليه قضاء مبرما.

ولكن ما الذي دعا امريكا وايران لان تجريا حوارا علنيا بشان العراق وفي هذا الوقت بالذات بعد ان كان الطرفان يقضيان حوائجهما بالكتمان طيلة الفترة الماضية؟

الامر بسيط جدا فقبل الاعلان عن الحوار بين امريكا وايران كان كل شي يسير على ما يرام ووفق ضوابط محددة، ولكن في الشهور المنصرمة حدث ما لم يكن في الحسبان، فبالنسبة للامريكا بجلالة قدرها وهيبتها في العالم وتباهيها بالتها العسكرية العملاقة التي ظنت انها لا تقهر، قد استنفدت كل ما لديها من قوة لانهاء المقاومة الوطنية العراقية او حتى الحد من تصاعد عملياتها المسلحة، وفشلت بالمقابل جميع محاولاتها في بعث الروح في العملية السياسية وكان اخرها اقناع اطراف عراقية ممن يدعون بتمثيل السنة في الاشتراك في تلك العملية البائسة وتشكيل حكومة «وحدة وطنية» عساها ان تعوض عجز قوات الاحتلال عن انهاء المقاومة الوطنية عسكريا، الا ان هذه الحكومة المنتظرة لم تر النور لحد الان لاسباب معروفة، ناهيك عن فشلها في اشعال فتنة طائفية او حرب اهلية، الامر الذي وضعها امام خيارين احلاهما مر فاما الهزيمة التي تنهي احلام بوش وعصابته من المحافظين الجدد في بناء الامبراطورية الامريكية، واما البقاء في العراق وتحمل ما لا يطيقه الشعب الامريكي من خسائر مادية وبشرية كبيرة.

وبالنسبة لايران فقد تمردت على امريكا مستغلة ورطتها في العراق وبدات العمل على زيادة حصتها من الغنيمة، بل واخذت تخطط لتحقيق مشروعها القديم الجديد في العراق ومنه وضع العراق تحت هيمنتها او على الاقل جعل منطقة الجنوب محمية ايرانية تكون الممر للوصول الى لبنان عبر سورية، ووضع دول الخليج العربي تحت التهديد المستمر جراء وجود حركات شيعية تابعة لايران وخاصة في البحرين والسعودية. وفرض سيطرتها ايضا على شط العرب منفذ العراق الاساسي على البحار المفتوحة، ليكون الخليج العربي في نهاية المطاف خليجا فارسيا، الامر الذي اعتبرته امريكا خروجا عن نصوص الاتفاق.

امام هذا كله لم يعد هناك من مخرج امام امريكا الا العودة لتصحيح الاوضاع بينها وبين ايران التي اصبحت لاعبا اساسيا في معادلة الاحتلال، وازالة المشاكل العالقة بينهما حول تقاسم الحصص وتحديد مناطق النفوذ وتوحيد موقفيهما في مواجهة المقاومة الوطنية العراقية، وايجاد السبل الكفيلة في القضاء عليها عسكريا وسياسيا ومنعهما من تحقيق مزيد من الانتصارات التي ستؤدي حتما الى تحرير العراق وطرد المحتلين سواء كانوا امريكان ام ايرانيين.

لا تكمن الخطورة في عقد لقاءات مباشرة وعلنية بين ايران وامريكا وعقد الصفقات بينهما او حل الخلافات او تبادل النصائح الخ، فهذه كانت قائمة اصلا، ولا تكمن ايضا كما يركز البعض في اضفاء صفة الشرعية على التواجد الايراني في العراق، اذ ليس هناك من يحاسب ايران على تدخلها في شؤون العراق ما دام ذلك يجري تحت سمع وبصر قوات الاحتلال وبرضاها، فالمجتمع الدولي والامم المتحدة والنظام العربي لا حول لهم ولا قوة في تغيير اي ساكن في العراق. لكن الخطورة تكمن في نية الطرفين على وضع خطط جديدة ومنسقة بعناية هدفها القضاء على العراق والبدء بتنفيذ مشروع تقسيمه الى دويلات طائفية وعرقية، وزج المجتمع العراقي في حروب طائفية واهلية تحرق الاخضر واليابس، بصرف النظر عن امكانية فشل هذا المشروع الغادر. ولا احسب ان من المفيد ان ندعم هذا الراي بوقائع وادلة لان الشروع في هذا المخطط قد بدأ العمل به فعلا وخاصة في الاسابيع الماضية.

فحول اثارة الفتنة الطائفية فان خير نموذج عنها ما قامت به قوات الاحتلال ومغاوير الداخلية من تفجير مرقد الامامين علي الهادي والحسن العسكري في منطقة سامراء، وما اعقبه من حرق وتدمير المساجد وقتل الابرياء ولا زالت هذه الجرائم مستمرة حتى الان. في حين شرع عملاء الاحتلال بعمليات تطهير في بعض المدن من الطائفة السنية وتجري منذ ايام عمليات هجرة متبادلة بهدف وضع جدار صيني بين المناطق الشيعية والسنية للوصول الى اقناع العراقيين بتقسيم العراق، وياتي ضمن هذا السياق تجديد مطالبة الحكيم وبقوة باقامة اقليم مستقل في جنوب العراق على غرار ما حدث في شماله. ولكن الاهم من كل ذلك ان من بين ابرز هذه المخاطر هو عمل الطرفين على تنسيق عسكري بين قوات الاحتلال من جهة والمليشيات المسلحة والحرس الثوري الايراني الذي كثف تواجده في الجنوب والوسط بما فيها العاصمة العراقية بغداد من جهة اخرى، تمهيدا لشن عمليات عسكرية واسعة النطاق على معاقل المقاومة الوطنية العراقية.

ستدخل هذه المؤامرة حيز التنفيذ في خلال الايام او الاسابيع القادمة، فقد وصل الوفد الايراني المفاوض الى بغداد قبل يومين، وستجري المفاوضات دون مشاركة اي جهة عراقية بما فيها احزاب الاحتلال في السلطة، وهذه تعد سابقة غريبة من نوعها كونها تتعاكس مع القانون الدولي ومواثيق الامم المتحدة والجامعة العربية، حيث يجري تحديد مستقبل بلد مستقل منذ اكثر من ثماني عقود دون علم منه، وهذا يعيد الى الاذهان ما حدث خلال الحرب العالمية الاولى اذ اجتمعت بريطانيا وفرنسا وقررتا تقسيم الوطن العربي وفق اتفاقية اطلق عليها اسماء وزيري خارجية البلدين هما سايكس وبيكو.

يحدث كل هذا دون اعتراض من احد لا من قبل الامم المتحدة ولا من قبل الدول التي تسمي نفسها حضارية وتحترم القانون الدولي، ولا من النظام العربي سوى بعض التمتمات غير المفهومة او التي لا طعم لها ولا لون ولا رائحة، في حين يقوم العالم ولا يقعد اذا قتلت شخصية سياسية مثل الحريري او اختطف صحافي اجنبي، وقد نذكر في هذا الصدد كيف هب عرب امريكا ومسلموها لمنع حركة طالبان من تدمير تماثيل لرموز دينية، واعتبر هذا العمل تدميرا للحضارة الانسانية. اما تقسيم العراق واشعال فتنة طائفية في مجتمعه اضافة الى احتلاله وتدمير تاريخه وحضارته، فهذا لا يعني بالنسبة لهؤلاء شيئا لا من قريب ولا من بعيد. والاغرب من هذا كله هو ذلك الصمت الرهيب من قبل الجماهير العربية امام هذه الاحداث فلم تخرج مظاهرة او يحدث اعتصام أو اضراب قام في جامعة او مصنع، ولكن ليس هذا كل شيء فالاحزاب والقوى العراقية التي اعتبرت نفسها معادية للاحتلال، اكتفت هي الاخرى باصدار بيانات عائمة وغير مفهومة حول هذا الحوار، ناهيك عن ان القادمين الجدد للعملية السياسية والذين برروا دخولهم لها بانهم سيحدون من هيمنة ايران على العراق ويعيدون له عروبته ووحدته، نراهم صامتين صمت القبور على ما يجري، فها هي ايران وقد شرعنت وجودها في العراق وهي تتفاوض وكان العراق واحد من املاكها وها هي وحدة العراق وقد تجزأت، وعروبته اصبحت في خبر كان في ظل الاحتلال ترى متى تنسحبون من مستنقع الخيانة؟

هل نجد املا في انقاذ العراق من هذه المحنة على يد القوى الخيرة من ابناء شعبنا وفي طليعتها المقاومة الوطنية العراقية وعلى وجه الخصوص منها المقاومة المسلحة؟

بكل ثقة واعتزاز وفخر ومن دون اي تردد نقول نعم، هؤلاء هم من سيحبط كل هذه الخطط الجهنمية وسيسيرون بنا الى شاطىء التحرير، فالمقاومة ادركت جيدا انها السبب الذي دفع الاعداء لان يتحدوا ضدها، وادركت بان هدف هذا الاتحاد المطالبة براسها، ولذلك قالت المقاومة لهؤلاء: انتم تعدون العدة وتشحذون سلاحكم، ونحن نعد العدة ونشحذ سلاحنا اكثر، انتم تريدون تقسيم العراق ونحن سنحافظ على وحدته بدمائنا، انتم تريدون احداث فتنة طائفية ونحن سنقطع الطريق عليكم، انتم تتحدون على الباطل ونحن نتحد على الحق والباطل دائما كان زهوقا.

لكن هل يجوز لنا ان نكتفي بهذا الامل ونقف متفرجين على المقاومة البطلة وهي تذود عنا وعن شرفنا وكرامتنا وعرضنا؟

الوطن ملكنا جميعا ومن اجتهد بان طريق التحرير يمكن ان يمر عبرالحوار، او وفق جداول زمنية او مشاركة في العملية السياسية، او من خلال النضال السلمي وحده، عليه ان يعيد النظر ويتقي الله ويعود الى جادة الصواب، ولنتذكر ان ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة او كما قلنا في مقالة سابقة احتل العراق بالقوة ولا يتحرر الا بالمقاومة. المؤامرة كبيرة وخطيرة ويجب علينا جميعا التصدي لها ودحرها بكل ما اوتينا من قوة والتاريخ لن يرحم المتخاذلين والمستسلمين، وليس من خيار مشرف امام الجميع سوى الالتحاق في صفوف المقاومة الوطنية العراقية الباسلة لنقترب اكثر من ساعة التحرير.

* كاتب عراقي

الرجل الذي تحدى الانتداب؟

شمس الدين العجلاني*

■ تحتفل سورية العربية في السابع عشر من نيسان (ابريل) بذكرى جلاء المستعمر الفرنسي، وبهذه المناسبة نستذكر معا تاريخ رجل من رجال بلادي كان من صانعي الاستقلال.

جميل مردم بك، تذكروا هذا الاسم جيدا، انه رجل من رجالات سورية ناضل ضد المستعمر الفرنسي وكان كبقية الرجال الذين صنعوا استقلال سورية، كان يناضل بالدم والعرق والمال في سبيل اعلاء كلمه سورية، ولتبقى راية الوطن هي الراية الخفاقة في الافق. جميل مردم بك هو الرجل الذي قال لمندوب فرنسا السامي اخرج من مكتبي.

فمن هو هذا الرجل:

جميل مردم بك:

ينتسب هذا الرجل الى اسرة دمشقية عريقة، ولد في دمشق عام 1893 وبدا دراسته فيها، وبعد ان انهى تحصيله الثانوي قصد فرنسا لاستكمال تعليمه، كان همه الاول ان يتقن العلوم الزراعية من اجل تحسين استثمار ممتلكات العائلة من الاراضي الزراعية، وانتسب في الوقت نفسه الى معهد العلوم السياسية في باريس، وفي العام 1911 اسس بالاشتراك مع مجموعة من الشباب المثقف جمعية سرية سميت «الجمعية العربية الفتاة» في باريس، لتحرير الارض العربية من الهيمنة العثمانية والاجنبية.

في العام 1913 انضمت بعض الجمعيات السرية الى «الفتاة» في الدعوة الى مؤتمر للعرب يعقد في باريس، وانعقد المؤتمر فعلاً وعرف باسم «المؤتمر العربي» وشارك فيه ممثلون عن جميع الاقاليم العربية، وكان جميل مردم بك واحداً من الثمانية الذين وجهوا الدعوة للمؤتمر وشغل فيه وظيفة امين السر العام المساعد، وكانت مهمته تنسيق الجهود وتصنيف المطالب الوطنية للعرب، وصدرت عن المؤتمر قرارات تم تبليغها للدول العظمى ولسفير الامبراطورية العثمانية في باريس، ومنذ ذلك التاريخ فرضت القضية العربية نفسها على الراي العام بصورة متعاظمة. وعندما صدرت موجات الحكم بالاعدام من قبل محكمة عليا على رواد القضية العربية، كان مردم بك لا يزال في فرنسا، وعلى الرغم من ذلك صدر الحكم عليه بالاعدام غيابياً.

وبعد ان نجحت الثورة العربية واعلنت الهدنة، قصد الشريف فيصل بن الحسين اوروبا من اجل الدفاع عن التطلعات العربية بعد انسلاخ الاقاليم العربية عن الامبراطورية العثمانية، وقد انضم جميل مردم بك الذي كان لا يزال في فرنسا الى الشريف، واستطاع في شهر شباط (فبراير) 1919 ان يُسمع صوت سورية في خطاب القاه اثناء مؤتمر الصلح في فرساي، وكان الشعار السوري المطروح امام المؤتمر هو ان سورية، كما استطاعت ان تسهم في حدود امكانياتها في المجهود الحربي للحلفاء، فانها لا ترفض المساعدة الفنية من الغرب، ولكنها حريصة على ممارسة سيادتها الكاملة، وان تكون هذه السيادة محترمة ومعترفاً بها علناً. واحسنت اوروبا استقبال الشريف فيصل، ولكن مهمته اصطدمت بعقبات عديدة، وعاد مردم بك الى ارض الوطن برفقة الشريف فيصل عام 1919، واصبح من مستشاريه.

انضم جميل مردم بك الى حزب الشعب، الذي اعلن في العام 1925 الثورة ضد الاحتلال الفرنسي، واسهم في المعارك التي جرت بين قوات الاحتلال الفرنسي وبين المقاومة السورية التي كان لواؤها معقوداً لسلطان باشا الاطرش، وعندما حاصرت القوات الفرنسية جبل الدروز وامرت باعتقال زعماء الثورة استطاع جميل مردم بك، والدكتور عبد الرحمن شهبندر الفرار والوصول الى مدينة حيفا في فلسطين، واصدرت سلطات الانتداب الفرنسي الحكم عليهما بالاعدام غيابياً. وفي عام 1928 انتخب نائبا في البرلمان عن مدينة دمشق، وفي شهر كانون الاول (ديسمبر) من عام 1946 شكل الحكومة السورية واعاد تشكيل الحكومة في تشرين الاول (اكتوبر) من عام 1947، وتقلد بنفسه وزارة الدفاع الوطني عندما بدات العمليات الحربية في ايار (مايو)، 1948 وادخل اصلاحات جذرية في جهاز الجيش، وفي شهر كانون الاول (ديسمبر) 1948 قدم مردم بك استقالة الحكومة، وكان السبب الحقيقي فشل الجيوش العربية في فلسطين.

وكان الرجل عارض بشدة الموافقة على الهدنة الاولى والثانية اثناء الحرب، والتي كانت الموافقة عليهما سبباً مباشراً للهزيمة، ولكنه اضطر في المرتين للموافقة تحت ضغط المصريين والعراقيين والاردنيين الذين كانوا لا يزالون يعانون من الاحتلال البريطاني، وكانت الحكومة الوحيدة التي تساند سورية هي الحكومة المستقلة التي يراسها رياض الصلح في لبنان. وبالاضافة الى ذلك رفض مردم بك التوقيع على اتفاقية «التابلاين» حيث وجد ان نصوصها ليست في صالح سورية، كما رفض قبل ذلك التوقيع على الاتفاقية النقدية مع فرنسا لانها ترهن الاقتصاد السوري للاقتصاد الفرنسي، وبعدها رفض اتفاقية الهدنة التي دعيت سورية لتوقيعها في رودس.

غادر مردم بك سورية في كانون الثاني (يناير) 1949 واقام في القاهرة، حيث نشر في شهر ايلول (سبتمبر) من عام 1954 تصريحاً اعلن فيه رسمياً اعتزاله الحياة السياسية، ولم يكن قد تجاوز الواحدة والستين من العمر، وفي التاريخ المعاصر كان المثال الفريد للزعيم السياسي الذي يعتزل الحياة السياسية وهو في اوج نشاطه، وفي الاول من شباط (فبراير) 1958 دعاه الرئيس جمال عبد الناصر للوقوف معه ومع الرئيس القوتلي عند التوقيع على الاعلان عن الوحدة بين سورية ومصر.

وافاه الاجل في عام 1960

حين قال اخرج لمندوب فرنسا:

بتاريخ 26 ايار (مايو) من عام 1945 شهدت شوارع دمشق موكبا عسكريا حافلا، تزار سياراته بصفاراتها الحادة، عربات جيب عسكريه. ضباط وشرطه. سيارات مدرعة ومصفحة. الموكب يخترق شوارع دمشق محيطا بسيارة فاخره تحمل العلم الفرنسي، ويصل الموكب بسلام الى وزاره الخارجية، وتقف السيارة الفاخرة، ويقفز الجنود حولها ويتقدم احدهم ليفتح الباب للجنرال الفرنسي (بينيه) مندوب فرنسا السامي. يتمختر الجنرال (بينيه) بكل عظمة هو وكل الاوسمة والنياشين التي علقها على صدره، ويدخل مع شلة من ضباطه الى مبنى الوزارة قاصدا مكتب الوزير. ولم يكن يدري هذا الجنرال ان وزير الخارجية آنذاك جميل مردم بك قد عجن بالوطنية، وتلقى اول درس في حب الوطن من صدر امه ولم يكن عمره آنذاك الا اياما قليلة. لم يفاجا الوزير بدخول الجنرال الفرنسي لان الضوضاء التي احدثها هو وموكبه العسكري الحافل، لفتت انتباه الوزير فاتجه الى النافذة ليرى ثكنة عسكريه قد انتقلت الى امام وزارته. دخل الجنرال وكل نياشينه الى مكتب الوزير بدون موعد او استئذان، والقى تحيه الصباح على الوزير مردم بك، الذي رد عليه بكل بروده الاعصاب وهو يشغل نفسه ببعض الاوراق التي كانت على مكتبه، فتقدم الجنرال للوزير بمذكرة تتضمن مطالب فرنسيه من الحكومة السورية، فتناولها مردم بك واخذ يقراها بكل هدوء بعد ان طلب فنجان قهوة لنفسه دون ان يطلب للجنرال اي شيء. وبعد مرور قرابة الربع ساعة قال الوزير ان سورية لا تستطيع قبول ما جاء في المذكرة، فرد عليه الجنرال وهل تستطيع سورية عدم القبول وابتسم بسخرية قائلا هل تعتقد سورية انها دوله مستقلة لكي ترفض طلبات فرنسا؟ فابتسم مردم بك هو الآخر بسخرية ووقف وكل عنفوان رجالات سورية معه قائلا: وهل تعتقد فرنسا انها دولة عظمى لكي توجه هذه المذكرة الى سورية؟ واشار الى باب مكتبه قائلا اخرج من مكتبي. عقدت الدهشة لسان الجنرال وتراقصت كل النياشين على صدره، ولم ينطق بكلمة واحدة، انما لملم نفسه وجرته قدماه الى باب المكتب، وخرج من وزارة الخارجية السورية مهزوما منكسرا.

وادرك الوزير مردم بك ان هذه الحادثة ستكون لها ذيولها، ولا بد من وضع رئيس الجمهورية بصورة هذه الواقعة، فتناول سماعه الهاتف يطلب رئيس الجمهورية والذي كان آنذاك الوطني الكبير شكري القوتلي، وقص الوزير على الرئيس ما حدث فقال القوتلي للوزير: انت غلطان لانك لم تقطع رقبته، او على الاقل ان تأمر بالقائه من اعلى درج الوزارة.

هذه هي سورية وهؤلاء هم رجال سورية وصانعو استقلالها، فهل عرفتم هذا الرجل الذي قال لمندوب فرنسا السامي اخرج من مكتبي لانه تطاول على الوطن على سورية؟ انه جميل مردم بك واحد من عشرات بل مئات رجالات سورية المجبولين بالكبرياء وحب الوطن الذين صنعوا استقلال سورية، لا تنسوا هذا الرجل انه واحد من رجالات سورية والامة التي لا تقرأ تاريخ رجالاتها لا تستطيع بناء مستقبلها.

* صحافي وكاتب من سورية

alajlani@scs-net.org

بمناسبة قرب انعقاد دورته السابعة عشرة:

هل بإمكان المؤتمر القومي العربي إنشاء «جامعة عربية شعبية؟»

علاء الدين الأعرجي*

«إذا كانت سنوات الهزيمة والخيبة والضياع قد أفقدت المواطن العربي ثقته بالأنظمة والمنظمات، فلا بد من عودته بذاته إلى ساحة النضال ليبني المؤسسات المحققة لآماله». هذا ما أعلنه المؤتمر القومي العربي نفسه، في أول دورة عقدها في تونس في عام 1990. والسؤال الجارح الذي أطرحه اليوم: هل حقق المواطن العربي بعض طموحاته «بعودته بذاته إلى ساحة النضال» من خلال المؤتمر القومي العربي والمنظمات المتعددة الأخرى؟

فبعد مرور 16 عاما على إنشاء المؤتمر، الذي يواجه اليوم انعقاد دورته السابعة عشرة (الدار البيضاء، المغرب، في الفترة 5ـ8 ايار ـ مايو 2006)، ما أشبه اليوم بالبارحة، مع فارق مهم جدا وكبير جدا، وهو أن الإنسان العربي أصبح اليوم اكثر إحباطا ويأسا آلاف المرات، ليس فقط بسبب الأنظمة العربية، المعروفة بضعفها وفسادها وانبطاحها الكامل على أقدام أمريكا وإسرائيل، واستبدادها بشعوبها، وحسب، بل من يأسه من معظم الأحزاب والمنظمات الشعبية والفكرية، بما فيها هذا المؤتمر القومي العربي، الذي، أنه، لا يقدم له، كما يرى البعض، سوى الشعارات التي شبع منها، والتوصيات التي ترمى في زوايا الإهمال، وعبارات الرفض والتنديد والشجب، التي لا تمثل إلا صرخة في واد، في حين تزداد الأمة ترديا، في كل يوم، في حضيض الاحتلال أو التبعية والإذلال والتجويع والحصار، كما يحدث في فلسطين والعراق والسودان، مثلا، وبوجه خاص. وفي هذا السياق يعجبني عضو المؤتمر، المفكر محمد عابد الجابري، حين يقول في كتابه «الخطاب العربي المعاصر»: مهما اشتدت الكارثة أو عظمت الهزيمة إلا وعبّر الوعي العربي عن رفضه لها بطرح آمال وأهداف في مستوى حجم الكارثة وأكثر، بل يعالج هذه الكارثة وكأن هذه الآمال والأهداف قد تحققت بالفعل (ص 128). ونحن نتساءل: أليس هذا ما نفعله من خلال توصيات وقرارات المؤتمر التي نصدرها في كل دورة؟

ومع ذلك من الإنصاف أن أبادر إلى القول بأن من مميزات المؤتمر، المتمثلة في إدارته المنتخبة بحرية دوريا، سعة الصدر والقبول، إلى حد كبير، بالرأي الآخر. وهذه ميزة لم نألفها في مجتمعنا العربي، بكل أسف. فقد كنت قد دعيت إلى المؤتمر منذ عام 1997، بعد نشري مقالتين مسهبتين تحت عنوان «قرارات المؤتمر القومي العربي السابع؛ هل ترقى إلى معالجة الوضع الكارثي الماثل» (القدس العربي، 7و8 أيار ـ مايو 1997)، حيث حللت قرارات المؤتمر وانتقدتها بشدة. وسعيا وراء الارتفاع إلى مستوى الخطر الداهم والكارثة المحيقة بالوطن العربي، لم أتوقف أبدا عن النقد البنّاء، طلبا للتوصل إلى وسائل مبتكرة لمعالجة الموقف المتأزم.

والأدهى من ذلك أننا نلاحظ بوضوح أن «فكرة القومية العربية» نفسها، بما في ذلك مُثلها العليا ومبادئها الأساسية، تتدهور وتتلاشى أمام أعيننا تدريجيا. خاصة وقد خيبت الأنظمة العربية، التي رفعت شعاراتها، ظن الجماهير، التي كانت تؤمن بها، بل أصبحت تلك الفكرة ودعاتها من المنظمات القومية، موضع اتهام مباشر، لأنها كانت وما زالت، تبدو وكأنها، ترتبط بالأنظمة العربية الاستبدادية والقمعية، أو تغض الطرف عن أخطائها الفاحشة التي أضرت بمبادئ الفكرة القومية ذاتها، بل تؤيد سياستها وتدافع عنها لمجرد ارتباط تلك الأنظمة بالفكرة العروبية.

لذلك أتمنى أن يلتفت المؤتمر إلى هذه الأخطار المحدقة به وبالأمة ككل، بل يجب أن يعيد النظر في مبادئه العامة وسياساته السابقة. خاصة وهو يتمتع بعضوية نخبة متميزة تتكون من أكثر من 600 من المفكرين والكتاب والباحثين، وكبار السياسيين المخضرمين، بما فيهم رؤساء دول وحكومات ووزراء وسفراء سابقين. فليس من المعقول، ولا من صالح المؤتمر أن يظل يعيد نفسه منذ 16 عاما، ويواصل ترديد شعاراته وبياناته السنوية التقليدية، التي لم تؤد إلى أية نتيجة، على الصعيد القومي والاجتماعي بالنسبة لجماهير الأمة.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن تاريخ أي مجتمع أو أمة وسيرورته الحالية وصيرورته المستقبلية تعتمد، في المحصّلة النهائية، على تفاعل وتصارع قوى وعوامل متعددة ومعقدة. فان كانت عوامل التخلف أقوى من عوامل التقدم، فإن سيرورة المجتمع ستكون سالبة. أي أن المجتمع يتراجع أو يسير إلى الخلف، وربما يتقدم قليلا، ولكن بوتيرة لا تكفي للحاق بركب الحضارة الصاعدة، فتزداد الفجوة بين تلك المجتمعات والمجتمعات المتقدمة، مما يزيد من سيطرة الأخيرة على الأولى، مستغلة ضعفها وحاجتها، وهذا ما نلاحظه من تدخل أو تسلط واضح على مقدرات البلدان العربية، واستغلال مواردها وإملاء شروطها. وهكذا فعلى الرغم من أن المؤتمر يندرج في عداد عوامل التقدم القليلة، في نظري على الأقل، فإنه لم يكن من القوة الكافية للتغيير والتحسين أو تعجيل تلك السيرورة. لذلك قدمت عددا من المقترحات، لتعزيز دور المؤتمر وتفعيل مقرراته ومبادئه، منها إنشاء «جهاز مستقل دائم للنقد الذاتي والتقييم المتواصل»، فضلا عن إنشاء «جامعة عربية شعبية»، كما سيأتي ذكره.

والتعريف بالمؤتمر قد يكون مفيدا، لا لتبرير موقفه، بل لبيان محدداته من خلال طبيعة تكوينه وأهدافه. فالمؤتمر تجمع لنخبة من المثقفين والمفكرين العرب المؤمنين بحق هذه الأمة في تحقيق كيانها القومي والحضاري، انطلاقا من عناصر أساسية مشتركة، أهمها اللغة والثقافة والتاريخ والهموم والأهداف والتطلعات. فضلا عن أن هذه الأمة تعيش على رقعة جغرافية محددة ومعروفة، ولها حضور تاريخي وحضاري متميز، على الصعيد العالمي. وتقضي المادة الثانية من النظام الأساسي للمؤتمر، بأنه يسعى إلى «الإسهام في شحذ الوعي العربي بأهداف الأمة المتمثلة في مشروعها الحضاري: وهي الوحدة العربية، والديمقراطية، والتنمية المستقلة، والعدالة الإجتماعية، والاستقلال الوطني والقومي، والتجدد الحضاري».

والمؤتمر ليس حزبا سياسيا يسعى إلى تسلم السلطة، بل منبر لتبادل الآراء في شؤون الأمة واتخاذ مواقف محددة وواضحة إزاءها. لذلك فإنه يحاول أن «يعبر عن ضمير الأمة ويتحول إلى إحدى المرجعيات القومية الشعبية، ويحرص على أن يصوغ مبادئ ويدير حوارات ويقدم تحليلات ويرسم برامج ويطلق مبادرات يحملها أعضاؤه إلى مواقعهم وأقطارهم، ويسعون إلى ترجمتها في حركتهم اليومية، نضالية كانت أو سياسية أم فكرية أم إعلامية»، كما يقول، أمينه العام، الأستاذ معن بشور، الذي يتميز بنشاط متوثب ومتواصل.

ومع اعتبار كل ذلك، ما زلنا نتساءل: أما يمكن أن يحقق المؤتمر منجزات أكبر؟ ألا يمكنه بهذه النخبة من المثقفين الناشطين في جميع ميادين العمل الفكري والسياسي والعملي، أن يخلق وسائل مبتكرة لتفعيل عمله، وتحويله من مجرد مرجعية فكرية، إلى منظمة مؤثرة في معالجة الوضع الكارثي العربي، مع احتفاظه بشخصيته الأصيلة المتميزة وعدم تحوله إلى حزب سياسي؟

وتحقيقا لهذا الغرض، يمكن أن يكون العلاج باتجاهين، على الأمدين البعيد والقريب:

الاتجاه الأول: نرى أن الأوان قد حان، لقيام المؤتمر بخطوتين مهمتين: الأولى، اتخاذ إجراءات عملية لإعادة النظر في مبادئه ووسائل تحقيقها كما أسلفنا، والثانية، استشراف مستقبل الأمة، لفترة ربع القرن القادم، بالتعاون الوثيق مع قاعدته التأسيسية والفكرية والثقافية : «مركز دراسات الوحدة العربية»، وذلك على غرار ما قام به هذا المركز قبل عقدين تقريبا. (انظر التقرير النهائي لمشروع استشراف مستقبل الوطن العربي، برئاسة الدكتور خير الدين حسيب، 1988).

إما الاتجاه الثاني، فينحو لاتخاذ إجراءات سريعة، وابتكار وسائل فاعلة ومباشرة، لمعالجة الأزمة الحالية، وعدم الانتظار لتفعيل العلاج الجذري الطويل الأمد. ومن جملة هذه العلاجات، المباشرة اقترحنا على المؤتمر إنشاء «جامعة عربية شعبية» تنافس جامعة الدول العربية أو حكوماتها غير الشرعية أصلا، وتكون بمثابة برلمان شعبي يمثل جماهير الأمة العربية. (أنظر مقالنا «إنشاء جامعة شعبية كبديل مشاكس لجامعة الدول العربية» المنشور في هذه الصحيفة، في 2004/3/18، والسابق «جامعة للشعوب العربية وموسوعة عربية للنهضة»، في 2000/3/27، في نفس الصحيفة)

فباعتباره أكبر وأهم منظمة شعبية مستقلة تضم نخبة متميزة من المثقفين والمفكرين، يمثلون مختلف الاتجاهات الفكرية والسياسية، بما فيها القومية والليبرالية والماركسية والإسلامية (بالاشتراك مع المؤتمر القومي – الإسلامي)، المتطلعين إلى تنفيذ مشروعها الحضاري، أرى أن المؤتمر جدير بأن يأخذ على عاتقه تحقيق هذا المشروع الجريء.

وانطلاقا من فشل الجامعة العربية في معالجة أي من قضايا الأمة المصيرية، المعروف لدى الجميع، الذي تجلى في عدم تفعيل مختلف القرارات السابقة، بما فيها الدفاع العربي المشترك، والسوق العربية المشتركة، والتكامل الاقتصادي. وبعد إعلان اللاءات الثلاث الشهيرة، حلت محلها عملية استجداء «الآخر»، الذي لم يعد يقبل بتوسلات القادة العرب وانبطاحهم؛ أقول بسبب هذا الفشل الذريع المتواصل لـ«جامعة الحكومات العربية»، فقد اقترحنا إنشاء «الجامعة الشعبية العربية»، التي ستضم أكبر عدد ممكن من المنظمات غير الحكومية المستقلة عن الحكومات، أو ما يسمى المنظمات الأهلية أو منظمات المجتمع المدني، غير الخاضعة للتأثير الحكومي، بما فيها النقابات العمالية والاتحادات الثقافية والمهنية ومنظمات حقوق الإنسان والتنظيمات النسائية واتحادات الطلاب والمعلمين، وغيرها .

ولا شك أن مثل هذه المنظمة الجامعة، لو أُحسن تشكيلها وتنظيمها وإدارتها على أسس ديمقراطية، ستعكس نبض الشارع العربي وتطلعات الجماهير لحياة أفضل بعيدا عن التبعية الداخلية والخارجية. وستصبح مؤثرة وفاعلة بدون شك أكثر من الجامعة العربية، خاصة وان لدينا ما يقارب مئة ألف منظمة غير حكومية حسب بعض الإحصاءات. (أنظر أحمد شكر الصبيحي، «مستقبل المجتمع المدني في الوطن العربي»، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ص 74). علما بأن كاتب هذه السطور، قدم عدة مذكرات، تتضمن تفصيلات وآليات إنشاء هذا المشروع، إلى الأمانة العامة للمؤتمر، دون أن يتلقى أي رد.

«إذا كانت سنوات الهزيمة والخيبة والضياع قد أفقدت المواطن العربي ثقته بالأنظمة والمنظمات، فلا بد من عودته بذاته إلى ساحة النضال ليبني المؤسسات المحققة لآماله». وهذا المشروع يعيد المواطن العربي نفسه إلى ساحة النضال، عن طريق بناء هذه المؤسسة التي تمثله أكثر مما تمثله الحكومات، وتحقق بعض آماله، على الأقل، تمهيدا لإنشاء البرلمان العربي المنتخب وليس المعين من قبل نفس الأنظمة العربية الفاسدة، كما يحدث الآن .

* محام وعضو المؤتمر

النخبة المثقفة بالمغرب بين:

سلطة الفكر وفكر السلطة

نور الدين بازين *

إن المتأمل في الواقع السياسي والفكري المترهل، الراهن في بلادنا يدعو إلى القول بان ما يسمى بالنخبة المثقفة في المغرب، لا زالت تتوزع حول كيانين آزلين اثنين، كيان يحتمي بأسوار السلطة، يمارس من داخل رحمها – عمليته الفكرية– التي تنتعش بها السلطة الحامية، وكيان يمارس معارضته الفكرية للواقع ولتمظهرات السلطة والتسلط باستقلالية ولكن بمعاناة، إننا أمام صورتين اثنتين:مفكري السلطة الذين تم احتوائهم، وسلطة المفكرين الأحرار أو بالأحرى المتحررين.

فالفئة الأولى هي فئة منتجي الفكر، أو هي إن صح التعبير هي التي تمارس سلطة الفكر:(المهدي بن بركة – عبد الله العروي– محمد عزيز لحبابي– عابد الجابري– المهدي المنجرة وغيرهم..)هذه الفئة لم يحتويها المخزن رغم عرض عدة مناصب عليها في جهاز الدولة، وصلت إلى منصب الوزير الأول(المهدي بن بركة والمهدي المن